عاقبـــــة سليمة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

لم يتفق الناس إلى الآن على وسيلة يدفع المرء بها عنه ثقيلاً يتصدى له ، ويلح عليه بما لا يسعه أن يجيبه إليه ، فالأمر متروك إلى صدق الروية ، وسرعة الخاطر ، وحسن البديهة ، ولكل موقف ما يقتضيه ، ويدفع إليه ويغرى به ، والذى يُلهَم الواحد فى موقف لا يُلهمه واحد آخر فى الموقف عينه ؛ فاذا بدا لى أولئك ما لجأ إليه « حامد » غريباً أو شاذاً أو غير لائق ، فلا تلمه ولا تنع ذلك عليه ، فان عذره أنه لم يخطر له سواه ، وأن الموقف كان يتطلب السرعة وانقاء الجدل ، فقد كان — كما لا تعلم — فى قهوة « الحمام » — بفتح الحاء — وكانت معه « فريدة » وهى بنت عمه ، وكان بينهما من الود أكبر مما يكون فى العادة بين ذوى القربى ؛ وكانت تنطوى له على حب هادئ ، وتحس — بفطرتها الذكية — أنه يصبو إليها ، ولكنها كانت تراه لا يصارحها بشىء ولا يبثها أمراً ، ولا يدع لفظاً أو عملاً يشى بهواه هذا ، فجنحت إلى الشك ، ثم يئست . ولما تقدم أحد أغنياء الريف يخطبها ، أغرت أباها بالتلكؤ ، لعل حامداً يتحرك ، ولكنه لم يفعل . فقالت لنفسها إذا لم أتزوج من أحب ، فانه لا يبقى أمامى إلا زواج المال والوجاهة . . . وهكذا حدث ، أعنى أنه لم يحدث ، وإنما احتفل بقبول هذا الوجيه الريفى ، وبتقديم « الشبكة » إلى عروسه المستقبلة ، على أن يكون العقد ليلة الجلوة

ومضت أيام ، والتقى حامد بها خارجة من متجر كبير ، فخفت اليه وهو يهم بركوب سيارته وسألته :

« لماذا هذه الجفوة ؟ »

فضحك وقال : « الجفوة ؟ إنما أفسح لمن هو أحق منى »

فتلفتت ثم قالت : « سأصرف سيارتى وأركب معك ، فهل تقبلنى ؟ »

قال : « ليس لى خيار ، انك كهذا الهواء ، لاغنى عنه »

قالت : « أشكرك » وصعدت إلى جانبه وأشارت إلى سائقها أن ينصرف . وسألها حامد :

« إلى أين بنا ؟ »

قالت : « إلى مكان فيه هواء ، وطعام ، فانى جائعة وحرّى »

فمضى بها إلى قهوة الحمام على النيل ؛ فأكلا شيئاً وشرب هو قدحاً من البيرة — أو الجعة كما تسمى — وقالت له على الطعام

« لماذا لم تهنئنى ؟ »

قال : أهنئك من اعماق قلبى ، ولكن بأى شىء ؟ »

قالت : بخطيبى — ثم انك لم تحضر — لماذا ؟ »

قال : « آه صحيح ، مبروك ! لقد سمعت أنه غنى جداً ، ووجيه فى بلده »

قالت : « نعم ، إن غناه مضافاً إلى غناى خليق أن يساعدنى على ما يميل اليه طبعى من البذخ والترف . صحيح ، فانى لا أطيق الفقر ، ولا أستطيع أن أحيا حياة رقيقة الحال »

قال : « أعرف ذلك — أو أنا على الأصح قدرته »

فحدقت فى وجهه فقال : « نعم ، لقد انتهى كل شىء الآن فلا ضير من الصراحة ، ومن الممكن أن أكاشفك بالحقيقة ... »

فقاطعته وقالت : « هل تعنى أنك . . . . »

ولم تتمها ، فقال : « نعم ، قدرت أن لا أمل لى ، فان عمى غنى وأنا فقير ، وقد عطفه علىّ أنى ابن أخيه »

فقالت : « ولكنك لست بفقير ! »

قال : « أعنى نسبياً . . كل ما أكسب بعد الجهد والعناء ستون جنيها فى الشهر . وما خير ستين لمن تنفق وحدها — وهى فتاة فى بيت أبيها — أكثر من هذا القدر ؟ »

فلم تقل شيئاً ، وفتر الحديث بعد ذلك ، وصار متقطعاً ، وإن كان حامد لم يقصر فى توجيهه إلى كل ناحية تخطر بالبال . ثم قاما ، وانهما ليتخطيان باب القهوة وإذا بفريدة تشد على ذراع حامد وتقول بصوت يكاد يكون همساً : « حامد ! هذا هو ! »

فتلفت وهو يسأل : « من ؟ » ولكنها ذهبت تعدو إلى السيارة وفتحت الباب الخلفى وأغلقته وراءها ، وانطرحت على أرضها — لا مقعدها — فأهمل حامد السؤال والجواب ، ودخل سيارته وأدار المحرك ، ولم يفته أن يحكم ايصاد الأبواب حتى لا يفتحها أحد من الخارج ، وأسدل الستائر الخلفية فاستحال

أن يرى أحد فريدة وهي راقدة . ولم يكن حامد يعرف ممن تجرى ولا كان يدرى ما يخيفها ويدفعها إلى التخفي ، وإنما كان يدرى أنها تريد ذلك ، فعليه أن يكون عوناً لها

ومد يده إلى ناقل السرعة ، يريد أن يضعه في المكان الأول ، وإذا برجل ضخم هائل الأنحاء ، ولكنه أنيق الثياب مجبوكها يقول له :

« لحظة ! لقد رأيت فتاة تدخل هـذه السيارة ، فافتح الباب من فضلك لتخرج »

فابتسم حامد وقال : « رأيت فتاة تدخل في هذه السيارة ؟ أواثق أنت ؟ » ويتلفت وراءه ليطمئن

فقال الرجل بلهجة جافية : « أقول لك افتح الباب »

فقال حامد : « معذرة ، ولكنك غطىء . . . . إني لست سائق سيارتك »

فاحتد الرجل وصاح به : « إنها . . . إنها . . . ألا تنوى أن تفتح ؟ »

وعالج الباب ، ولكنه كان موصداً من الداخل ، فأعياه فتحه ، فارتد إلى نافذة حامد وقال بصوت اجتمع له الناس :

« افتح . . . أقول لك افتح . . . أخرج هذه الفتاة »

وصار المحتشدون على الرصيف جمعاً حافلا ، وأكثرهم من العامة والنوبيين ، والصبيان ، وسائقي السيارات المختلفة ، وعلت أصواتهم بالنكات والضحك ، فزاد الرجل حماقة ، وجعل يدق الباب بجمع يده ، وتهور فوضع قدمه على سلم السيارة وهم أن يدخل رأسه من نافذتها لينظر ، فلم يتوقر من عمل يعمله حامد ليدفعه عنه ويتخلص منه ؛ ولو غيره في مكانه لكان الأرجح أن يلكمه ، ولكن حامد لم ير أن يتقي شراً بشر ، واكتفى بأن يطير له طربوشه عن رأسه ، فطار عقله وراءه ، وارتد عن السيارة لينقذه من التراب البليل — أو الوحل — وسر الناس هذا المنظر فضحكوا ، وقهقهوا ، واغتنمها الصبيان فرصة فاقبلوا على الطربوش يدفعونه بأرجلهم كأنه كرة ويصيحون ويصخبون ، والرجل يسبهم ويلعنهم ويحاول أن يدرك واحداً منهم ، ولكنه ثقيل وهم خفاف ، فكف ، وعاد اليه الرشد مع التعب ، ونظر فاذا السيارة قد غابت !

* * *

وقالت فريدة لحامد في بيتها عصر يوم :

« هل تعرف لماذا دعاك عمك ؟ »

قال : « لا »

قالت : « ليسألك عما حصل في قهوة الحمام ، وعلى بابها »

قال : « من أخبره ؟ أنت ؟ »

قالت : « بل هو »

قال : « هو ؟ »

قالت : « نعم ، ألا تعرفه ؟ الخطيب ! واتهمني بالسكر أيضاً »

قال : « اتهمك أنت ؟ ولكنك لم تذوقي شراباً سوى الماء . أنا الذي شربت بيرة »

قالت : « ولا أنت — فاهم ؟ »

قال مستغرباً : « ولا أنا ؟ ولكني شربت بيرة — ولم لا أشرب ؟ وماذا يدعوني أن أقول غير الحق ؟ »

فهزت كتفيها وقالت : « كما تشاء ! ولكني أنذرك إذا اعترفت »

فسألها متعجباً : « تنذرينني ؟ لست فاهماً »

قالت : « يا صاحبي ، لا أستطيع أن أتزوج سكيراً — أنا هكذا — من الطراز القديم المحافظ »

فانتفض واقفاً وصاح : « ماذا تقولين ؟ »

قالت بضحك : « أليس كلامي مفهوماً ؟ »

قال : « ولكنك مخطوبة . . . . ؟ »

قالت : « كنت مخطوبة . . . أما بعد أن كشفت لي عن حبك المكتوم ، فقد اغتنمت الفرصة وقذفت بالشبكة في وجهه »

قال : « ولكني فقير . . . . »

قالت : « وأنا أحب الفقر . . . ليس أمتع منه ، لا تخف أن أجيء اليك بنباي الثقيل المنفر . . . والآن ألا تقبلني ؟ »

فدنا منها وهو يقول : « لم ألثم شفتيك منذ . . . . »

فقالت : « منذ يناير سنة ١٩٢٧ . . . دونت ذلك في مذكراتي . . . « اليوم لثم شفتي . . . . . . »

إبراهيم عبد القادر المازني